كيف يجب ان نكتب

نقرأ كتابة بعض الكاتبين فان كنت لبيباً فهمت لاول اشارة تبدو فيها ان غرض الكاتب الفاظ كتابته لا معانيها وانهُ اقرب الى الصائغ والمطرّز منهُ الى الفلاح الذي يبيعك القمح بالاردب لا بالحبة . وانهُ انما يعنى بالديباجة والاسلوب لا بالمعاني المتخللة لها — بالحرف لا بالروح

لست ممن يكره الصياغة او ممّن يقول بالباس المعاني حلة من الالفاظ لا تنزع ولا تتبدّل . ولكن كاتباً يستعمل لفظة اهريق مثلاً حيث يريد اهرق او أُريق لا يعني الاّ الاشتباه فيهِ ونسبة سوء النية اليهِ لانهُ انما يقصد عرض بضاعتهِ للتباهي بها وليس لهُ من الكتابة غرض آخر . ولو امكنني ان اثبت ان لفظة « شُدِهْتُ » التي استعملها ابو الطيب في بعض شعرهِ حيث اراد « دُهشْتُ » لم تكن متداولة على الالسن في عصرهِ وانما اراد بها عرض بضاعتهِ لما ترددت طرفة عين في اتهامهِ بسوء النية في دبياجتهِ الشعرية او ما تسميهِ بالتقعّر والاغراب

وغريب ان تكون تقيصة الاغراب هي المزية الوحيدة التي احتكر بها بعض الكتاب صناعة الكتابة . ووجه الغرابة ان تكون النقيصة مزية لا الفضيلة . وان يستأثر اهل الالفاظ بهذه الصناعة لا اهل المعاني . فان في ادمغة بعض « الخارجين عن هيئة الكتاب » من المعاني ما لو جرؤوا على اظهارهِ لرأيتَ عرائس ابكاراً تزفّ الى الآذان وتدخلها بلا استئذان . ولكن يمنعهم من اظهارها خوف الكتابة ورهبة المتمّين اليها والمحتكرين لمصادرها ومواردها والمدعين لها سفاهاً والمحقين بها ظلماً . قال شاعر انكليزي اسمهُ غراي في مرثاة هي اشهر ما نظم وقد وقف على مقبرة قرية يندب من فيها من القرويين السذّج : كأَيّن من زهرة تنبت في مجاهل الصحراء فلا تُمتع ببهجة الوانها عين ولا يتعطر بشذاها انف تصيح زاهية ناضرة ثم تمسي ذاوية ذابلة وتموت ميتة المنسي المهمل بين يوم وليلتهِ . ولعل في هذه الحفر من اهل الاكف الخشنة الملمس مَنْ لو أُتيح لهُ تعلّم العزف على العود لاصبحنا نغمات يتضاءل عندها غناء الاهات الشعر والموسيقى » . انتهى بمعناهُ او نحوهِ

هذه حال الكتابة . تقف وانت الكاتب الليق تكلّم بعض العامة فلا يترك امامك مجالاً للقول فتصغر نفسك عندهُ حتى كأَنك انت العامي وكأَنهُ هو الاديب . فلا يسعك

حينئذٍ الاَّ القول انهُ لو أتيح لهُ ما أُتيح لك لبزّك ونحمد الله على ذلك والاَّ لذهبت ضياعاً انت وادبك وعملك . وكثيراً ما يكون وهو على هذا الحال احسن منك وانت على احسن حالاتك . ولولا غول ادبك الذي تحتكر بهِ صناعتك وتخيف غير المنتمين اليها لكانوا احق منك بلقبك وادبك وكنت احق منهم بلقبهم وحرفتهم

كتب جندي روسي من العامة الى صديق لهُ في انكلترا كتاباً نشرتهُ الشمس ثم انشأت عليهِ المقالة الافتتاحية الآتية نعربها لانها تعبّر عن شعور مشترك في دولة القلم قالت :

« نشرنا بالامس كتاباً من جندي روسي في ساحة الحرب الى صديق لهُ انكليزي يصف فيهِ ثقة الجنود الروس بحلفائهم الانكليز ويقول ان ما تعلّمهُ في المدارس قليل يمنعهُ الاعراب عمّا في نفسهِ اعراباً وافياً بالمراد . على ان كتابهُ لا عيب فيهِ من حيث بساطتهُ الطبيعية الجميلة . ونحن لا نرتاب انهُ لم يتعلّم الى الحدّ الذي يجعل المرء يظن ان الكتابة يجب ان تختلف عن الكلام العادي . فلذلك استطاع ان يقول ما يريد كأنهُ يتكلّم وهذا ما يجعل التعليم والتهذيب صعبين او مستحيلين على كثيرين فانهم يخشون اذا كتبوا كما يتكلمون ان يظهروا غير متعلمين ولا مثقفين فلذلك يساقون في تيار لغة ليس عليها من مسحة الادب الاَّ ما تلقفوهُ من بعض الصحف السيارة . وهذه اللغة لا تقول ما يريدون ان يقولوا — فان كلامهم العادي وحدهُ هو الذي يفعل ذلك — ولكنها تعبّر عن عواطفهم الاجمالية كأنها عواطف جمعية لا عواطف رجل واحد . وهي ليست في الحقيقة الاَّ صورة اخرى للفتهم الطبيعية وهذه لا يمكن افراغها في قالب آخر ما لم تفقد شيئاً من رواثها ورونقها لانها طبيعية والصورة الاخرى صناعية ولانهم اذا ارادوا ان يتكلموا عن شيء انتهم الالفاظ الصحيحة منقادة عفواً بلا طلب ولا تكلُّف وكل ما عداها خطأ لما فيهِ من الكلفة وآثار التصنع

« والرجل الذي اعتاد الكلام البسيط في الاشياء البسيطة لا يستطيع فجأة ان يحوّلهُ كلاماً مركباً مختلطاً . واللغة العالية التي يلجأ اليها الكتبة الاغرار انما هي تقليد للكلام المركّب الذي يعمد اليهِ الكتّاب الراسخون عند الكتابة في الاشياء المركبة . ولا بأس بهذا الطراز حيث الفكرة مركبة ولكنك اذا استخدمتهُ حيث الفكرة بسيطة سهلة فانهُ انما يضعفها ويذهب طلاوتها . وعليهِ اذا اطّلعنا على كتب واردة من ساحات القتال تدهشنا جودتها حينما يكتب الكاتب كما يتكلم ورداءتها حينما يحاول تقليد ما قرأ . ففي الحالة الاولى يخبرنا بما حدث لهُ . وفي الثانية لا يأتينا الاَّ باشياء كلية عامة لانهُ اكثر تفكيراً في اسلوبهِ منهُ فيما جرى لهُ

« وهذا الجندي الروسي لم يكن يفكر في دباجته فقد قال في كتابه « لقد اقترح بعضهم ان يكتب اليكم باسمي رجل اسمى مني ادباً واكثر علماً . ولكنني لم اشأ ذلك . وآمل انكم تكونون اكثر سروراً بكتاب رجل غير متعلم مثلي . فان ما أكتب هو الصدق بعينه » . ولو انهُ اكثر تعلماً مما هو ما استطاع ان يقول الحق الصراح على ما يعلمهُ وانما كان يورد رأيهُ على الطريقة التي يعبّر بها غيرهُ عن ذلك الحق . فان الحق الصراح انما يقال بالالفاظ التي تجلي امام قائلهِ وتمثل لهُ . فاذا نبذها ووضع في موضعها الفاظاً اخرى يظنها اعرق في الادب بطل قولهُ للحق

« ان في الكتابة بساطة غير مجلوبة يستطيع بها الكاتب ان يقول بعض اشياء بسيطة . وفيها صناعة وتطرية يمكنانهِ من الاعراب عن افكارهِ وعواطفهِ . ولكن الكاتب الذي هجر الخلة الاولى ولم يصل الثانية لا يقول شيئاً ولا يعبر عن شيء — فقد اسلم بأ للكلام من غير ان يكسب الآخر . وتراناً نقول عادة ان الذنب ذنب نظامنا التعليمي وليس الامر كذلك فانهُ متى تعلّم احد القراءة فهو لا يتعلم قراءة الثاقه واذا قرأهُ فانما الان تهذيبهُ سطحي . واما الان في مزاجهِ ما يحبب الثاقه اليهِ . وان نظامنا التعليمي في حاجة الى ما يخلّص تمام التخليص بين لغة الفكر والعواطف واللغة التي يراد بها تقرير الحقائق مجردة عن الغواشي والحواشي . ولتكن القاعدة لذلك ما يأتي : اكتب كما تتكلم ما دمت تستطيع ذلك بلغتك العادية اذ ليس هناك لغتان واحدة للكلام واخرى للكتابة . واللغة انما تختلف متى اردت ان تكتب اكثر مما تقول . وليس غرض الكتابة ان تعرض بضاعتك وتري الناس مبلغ ما قرأت بل ان تقول ما تريد متوخياً الصراحة والايجاز ما امكن

« واعلم ان معظم البضاعة المزجاة في الادب مصدرها اناس ليس لهم ما يقولون فلذلك لا يستطيعون استخدام اللغة العادية ولا لغة العواطف والفكر بل يلجأون الى لغة هي تقليد الثانية وغايتهم اقناع انفسهم واقناع السوى بانهم يعبرون عن عاطفة او عن فكر في حين انهم لا يعبرون عن شيء . وهذا التقليد شديد العدوى لسوء الحظ ومعظم الذين يُعدّيهم هم الذين عندهم امور بسيطة يريدون ان يقولوها فلا يطيقون ذلك للسبب المتقدم

« والخلاصة ان الكتابة اذا كانت غير مجلوبة فهي سهلة جداً . واذا كانت مجلوبة بتطرية وفنّا باصول وصناعة قائمة بنفسها فهي صعبة جداً . اما اذا لم تكن احد هذين الامرين فهي مستحيلة »

هذا ما قالهُ التيمس وهو كلام لا غبار عليهِ . وفي اعتقادي ان الجري على هذه القاعدة اسهل في الانكليزية منهُ في العربية بمراحل لتقارب لغتي الكلام والكتابة في الاولى وتباعدهما في الثانية فان الانكليز يجيدون بالكتب والرسائل التي تكتب بلغة بسيطة صحيحة حتى عدوا في مقدمة كتابهم بعض الذين لم يجيدوا غير كتابة الكتب وحتى قال ثاكري وهو من اكبر كتاب الروايات « ما نمت ليلة الاَّ ورسائل هَوَل مجانبي . وما ملتها قطُّ بل كنت دائم الاعجاب ببساطتها وسهولتها » . وهَوَل هذا احد الذين اشتهروا بكتابة الرسائل دون غيرها . قابل بين رسائل هَوَل ورسائل الخوارزمي او الهمذاني وغيرها ترَ عظم الفرق بين موضوع اعجابهم وموضوع اعجابنا وتعلم لمَ يجيد الانكليزي كتابة الكتب والرسائل ولو تخرج من المدارس البسيطة ولا يجيدها العربيّ (اريد ابن اللغة العربية) ولو تخرج من المدارس العالية . وليس لذلك من سبب سوى ما بين لغتي الكتابة والكلام في العربية والانكليزية من الفرق الكبير كما تقدم القول مما يجعل الجري على قاعدة التيمس في العربية متعذراً الآن

ولا علاج لذلك الاَّ بالتقريب بين لغتي الكلام والكتابة في العربية . والتقريب بينهما يكون باقتباس الالفاظ الفصيحة من الثانية وزجها في الاولى فبالعادة ومرور الزمان تزول عنها آثار الغربة والغرابة وتصير « متبلّدة » في وطنها الثاني . وهذا ما هو حادث في لغة جرائدنا . فانها صحيحة اجمالاً على قدر ما يسمح بهِ وقت صحف يومية مثلها وهي كل يوم تضيف الى جعبتها كلمات جديدة ولقتباس الفاظاً جديدة يفهمها القارئ البسيط بالمزاولة والتكرار . حتى انك تسمع البوابين وباعة الصحف والحمّارة يتحدثون بلفظة « النسبة » من هذه الجريدة او تلك كأنها كلمة عادية رضعوها مع اللبن لا تتوقف اذهانهم عند معناها ولا تلتفت عند لفظها

كذلك يساعد على اصلاح هذا الحال وتوحيد لغتي الكلام والكتابة ما امكن — ان يقوم كاتب عصري فيجمع كتابتهُ بين اللغتين او اللهجتين فيتهافت القراء عليها ويتخذها الكاتبون نموذجاً لكتابتهم ومثالاً ينسجون عليهِ (ن . ش)

جزيرة ارواد

جاءت الانباء في اوائل الشهر الماضي بان بحرية الاسطول الفرنسوي في بحر الروم احتلوا جزيرة ارواد على ساحل سورية في آخر اغسطس الماضي ورفعوا عليها الراية الفرنسوية. وارواد هذه جزيرة صغيرة في منتصف الطريق بين طرابلس الشام واللاذقية وهي اقرب قليلاً الى الثانية منها الى الاولى والى الجنوب الغربي من بلدة طرطوس وعلى مقربة منها و يمكن الوصول اليها من طرطوس في زورق من زوارق الصيد التي تكثر في تلك الجهة في اقل من ساعة. وهي الجزيرة الوحيدة التي يصح ان يطلق عليها هذا الاسم في جوار ساحل سورية وهي تبعد عن البر نحو ميل وربع

وهذه الجزيرة صخر كبير غير منتظم التنضيد طوله نحو ٢٦٤٠ قدماً وعرضه نحو ١٦٥٠ قدماً وسطحهُ مغطى بطبقات سميكة من الرمل ومشغول كلهُ تقريباً ببلدة ارواد وهي بلدة حقيرة سكانها نحو ٢٣٠٠ نسمة لا حرفة لهم سوى نقل البضائع على سفنهم وصيد السمك واستخراج الاسفنج. وفي الجزيرة اعمدة كثيرة وخصوصاً في ما يلي الميناء. ولا يزال حول الجزيرة انقاض سور عظيم ولاسيما في الجهة الغربية منها ويختلف علو ما لا يزال قائماً منهُ هناك من ٢٨ قدماً الى ٣٨ قدماً وهو مبني على طرز البناء القيقلوبي الضخم. وفي اعلى قمة في الجزيرة انقاض قلعة عربية قديمة. وقد كان قرب الميناء قلعة اخرى عفت آثارها. وفي الجزيرة صهاريج كثيرة يستقي منها اهلها وفي الجهة الشرقية منها مما يلي البر نبع ماء عذب يفور من البحر

مجمل تاريخها

ارواد او ارادوس او رواد كلمة عبرانية معناها التيه او ملجأ الهاربين كان فيها كثير من ابنية الفينيقيين واليونانيين مما لا تزال اثارهُ ماثلة حتى الآن. وكان لها على رواية المؤرخ كاريك ميناءان صغيران في الجهة الشمالية الشرقية. وفيها الآن كثير من الآثار والنقوش والكتابات اليونانية ومعظمها مستهل بكلمتي السناتو والشعب

اما تاريخها فقديم جداً وقد ذكرت مرات كثيرة في البقية الباقية من تاريخ الفينيقيين فانها كانت ثالث مدنهم بعد صور وصيداء. وذهب بعض المؤرخين الى ان الصيدونيين هم الذين اختطوا هذه المدينة وخالفهم آخرون فقالوا ان الشهادات التاريخية الكثيرة تثبت ان بانيها هو الارودي الذي جاء ذكرهُ في التوراة او اقرب رجل اليهِ من ذريتهِ فلم تكن لذلك

احدث عهداً من صيداء . وتقدمت ارواد في عهد الفينيقيين تقدماً عظيماً واتسع نطاق تجارتها وجاب تجارها الامصار وشقت سفنهم عباب البحار وذُكر اهلها في الكتب المقدسة فقال النبي حزقيال عنهم في كلامهِ عن مدينة صور « اهل صيدون وارواد كانوا ملاحيك » وقال « بنو ارواد مع جيشك على الاسوار من حولك الابطال كانوا في بروجك علقوا اترسهم من حولك هم تمموا جمالك »

وكانت حكومة ارواد ملكية على رواية سترابو المؤرخ ثم صارت جمهورية . وكانت مملكتها متسعة النطاق تشمل الجانب الاكبر من شمال سورية (من جبيل الى اللاذقية واوصلها بعضهم شمالاً الى مصب نهر العاصي في البحر المتوسط) وظلت في عزة ورفعة يهابها الاعداء ويخطب ودها الاصدقاء حتى جاء الفتح الفارسي فدنت لحكمهم وصار ملوكها يدفعون الجزية للفرس

وبعد ما انتصر الاسكندر على داريوس في معركة ايسوس (سهل الاسكندرونة) سنة ٣٣٣ قبل المسيح زحف على سورية ليدوخها قبل ان يسير على بلاد فارس فالتقى بهِ سترابو ابن جيرو ستراوس ملك ارواد وقدم اليهِ تاجاً ثميناً وسلم اليهِ جزيرة ارواد ومدينة ميراثوس (عمريت) وبعض مدن اخرى كانت خاضعة لارواد فرضي الاسكندر بهذا التسليم بالسرور والارتياح اما جيرو ستراتوس ملك ارواد فكان قد سار مع كثيرين من ملوك فينيقية في الاسطول الفارسي لقتال المكدونيين

ولما استبد السلوقيون بسورية كانت ارواد داخلة في ما عنا لم من البلاد وقد ذكرت كثيراً في تاريخ دولتهم واشتهرت خصوصاً باعداد السفن للحروب التي اثارها ملوكهم ولكنها كانت قد انحطت كثيراً عن منزلتها السابقة وما زال نجمها في افول حتى انقسمت مملكة السلوقيين على نفسها فعاد ذلك عليها بفائدة عظيمة . ولما نشبت نار الحرب بين سلوقوس كاليفيوس وانطيوخس هيراكس جعل ملك ارواد جزيرتهُ ملجأ للهاربين السياسيين فاتوا فيها في امن وسلام وكان كثيرون منهم من اصحاب المراتب العالية فلما فض النزاع وسوي الخلاف عاد هؤلاء الى اوطانهم وسعوا في مكافأة ارواد على جميلها فاسترجعت بذلك بعض مكانتها السابقة وزادت عزة وبسطة

ولكن الدهر لم يصفُ لها طويلاً فاتى الرومان سورية وفتحوها بقيادة بومبيوس وجعلوها ولاية رومانية واثقلوا عاتق اهلها بالجزية التي فرضوها عليهم فثاروا على الرومان واحرقوا

قائدين من قوادهم المشهورين فانتقم الرومان منهم وقتلوا كثيرين من وجوههم وكبرائهم

ولما ضاقت الجزيرة باهلها بنوا في البر قبالتها مدينة انترادوس (اي المقابلة لارادوس) وهي مدينة طرطوس الحالية . وقد خربت هذه المدينة مراراً ولكن قسطنطين الكبير اعاد بناءها سنة ٣٤٦ للمسيح واطلق عليها حينئذٍ اسم قسطنطينية وظلت تعرف بهذا الاسم الى القرون الوسطى لما ابدل باسم طورطوسا ثم حرفها العرب الى طرطوس

وذكرت جزيرة ارواد في جملة الاماكن التي امر لوقيوس القنصل الروماني بحماية اليهود فيها باشراف شمعون رئيس الكهنة كما ورد في الكتب المقدسة . ودخلت المسيحية هذه الجزيرة بواسطة بطرس الرسول لما زارها ثم صارت كرسي اسقفية وقد ذكر اسقفها في اعمال المجمع القسطنطيني . ولما عاد الخليفة معاوية ابن ابي سفيان مؤسس الدولة الاموية من غزوة قبرص في سنة ٦٣٧ اتى بسفنه الى جزيرة ارواد ودنا سكانها الى الطاعة فأبوا فشدد عليهم الحصار ولكنه لم ينل منهم منالاً فارفد اليهم اسقف حماة ليحملهم على المسالمة والصلح فيسوه عندهم وكان فصل الشتاء قد دنا واشتدت الارياح والامطار فاضطر معاوية الى رفع الحصار عنها ورجع الى دمشق . وعاد اليها بعد سنة وحاصرها فاستسلم اهلها بشرط ان تكون لهم الحرية في الذهاب اينما شاؤوا ودخلتها عساكر معاوية وحرقتها ودكت اسوارها وعطلت بناءها

وذكر ابن الاثير ان فتح ارواد كان سنة ٥٤ قال وفيها فتح المسلمون جزيرة ارواد وتقدمهم جنادة بن ابي امية واقاموا بها سبع سنين . وذكر ياقوت ان فتحها كان في تلك السنة ايضاً ايام معاوية وكان من الذين فتحوها مجاهد بن جبر المقرىء وتُبيع ابن امرأة كعب الاحبار

وقد اخذت ارواد تتقهقر منذ ذلك الحين فانحطت مكانتها وبارت تجارتها وما زالت تتناوبها الدول حتى جاء الصليبيون فاستولوا عليها وظلت في يدهم الى سنة ١٣٠٢ لما برحوا البلاد بجملتها . وامتدت مملكة ارواد في زمانها من جبيل الى اللاذقية كما تقدم وكان اشهر مستعمراتها حينئذٍ بلطس وبلانيه وكارن وانهدرا ومراثوس وهي معروفة الآن باسماء بلده وبانياس والقرنون ورمقا (بين طرطوس وعمريت) وعمريت

وكانت جزيرة ارواد آخر ما بقي بيد الفرسان الهيكليين من الصليبيين في سورية

ش ٦ العين الصناعية مقتطف أكتوبر ١٩٠٥